التداعيات الاستراتيجية للحرب على لبنان

2006/9/29م

الشيخ محمد شقير

لقد أصبح معلوماً ان الحرب الإسرئلية الأخيرة على لبنان لم تكن وليدة ساعتها، بل كان مخططاَ لهذه الحرب منذ سنوات سوى ان ساعة الصفر لبدئها بُررت بعملية أسر الجنديين الاسرائيليين لمبادلتهما بالآسرى اللبنانيين .ولقد كانت أهداف هذه الحرب كبيرة، تبدأ من إعادة تشكيل الشرق الأوسط الجديد ولا تنتهي عند القضاء على حزب الله، ونزع سلاحه، وابعاده عن الحدود، وما إلى هناك من اهداف معلنة او غير معلنة.

لكن من الواضح ان أهداف هذة الحرب كانت ترمي الى تغير الواقع السياسي الحالي في لبنان، وصولآ إلى تغير الواقع السياسي في سوريا، بل ايضاً في العراق وايران، والعديد من دول المنطقة، لكي تنسجم تلك الاوضاع مع المصالح الاميركية والإسرئيلية أو مع المسار الذي يراد أخذ المنطقة وشعوبها إليه سوى أن نقطة الانطلاق لهذا الشرق الأوسط الجديد كان لبنان.

وبمقدار ما كانت الاهداف كبيرة والأرباح جسيمة - لو نجحت هذة الحرب واستطاعت تحقيق أهدافها – فإن التداعيات والخسائر سوف تكون كبيرة ايضاً فيما لو فشلت ولم تستطع تحقيق أهدافها وسوف يكون من المفيد هنا ان نرصد التداعيات الاستراتيجية التي قد تترتّب على هذه الحرب الفاشلة التي شنتها إسرائيل وأمريكا على لبنان وشعبه ومقاومته.

أولاً: إن نتيجة هذه الحرب سوف تصيب بالضرر أساس الكيان الإسرائيلي، لأن هذا الكيان يعتمد في بقائه على جيشه، وهذا الجيش يرتكز على قوة الردع التي يمتلكها وتفوقه النوعي؛ فعندما يتبين ان هذا الجيش يقف عاجزاً أمام مجموعات قليلة من المقاتلين، وإنه لم يستطع تحقيق أهدافه طيلة أكثر من شهر من المعارك، رغم ما تكبده من خسائر في العديد والعتاد، فهذا يعني أن هذا الجيش لم يعد ذلك الجيش الذي يمكن الاطمئنان إليه بشكل كامل في حماية الكيان الإسرائيلي، وهو ما سيضعف ثقة المجتمع الإسرائيلي بمستقبل كيانه، وسيؤدي إلى ضعف شعوره بالأمن الوجودي في هذه المنطقة.

ولربما من هذا الباب صرّح بعض المسؤولين بأن هذه المعركة التي خاضتها إسرائيل مع المقاومة هي معركة حياة أو موت، بما يفسر أن هزيمة إسرائيل في هذه المعركة سوف تقضي على هيبة الجيش الإسرائيلي، وتضعف قوة الردع لديه، وبالمقابل سوف تعزز ثقة حركات المقاومة بصوابية خياراتها، وبقدرتها على مواجهة إسرائيل وإلحاق الهزيمة بها، وسوف تدفع شعوب المنطقة إلى الاقتناع أكثر بخيار المقاومة لمواجهة إسرائيل، واستعادة الحقوق المسلوبة.

وبالتالي فإن الإذلال الذي تعرض له الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان هو أمر لا يمكن تعويضه بسهولة، كما ستكون له تداعيات كبيرة على مستوى الداخل الإسرائيلي، ديموغرافيا، واقتصادياً، واجتماعياً، وسياسياً، ربما يقود إلى طرح أسئلة حول قدرة هذا الكيان على البقاء طويلاً في هذه المنطقة، بعد أن قدمت المقاومة في لبنان نموذجاً مختلفاً لحركات المقاومة وللشعوب العربية، نموذجاً ذا دلالة أنه يمكن هزيمة الجيش الإسرائيلي، حتى وأن استنفذ أعلى مستوى من قدرته التدميرية، وحتى وإن كان مدعوماً من العديد من الدول الكبرى، وبعض الدول العربية، وتوفرت له الظروف المؤاتية على أكثر من مستوى.

بل يمكن القول إن هذا النموذج في الحرب هو نموذج أميركي، ومعنى إفشال هذا النموذج في لبنان، هو أن هذا النموذج يمكن أن يهزم رغم كل محاولات التسويق بأن نموذج الحرب الأميركي لا يمكن هزيمته لقد أثبت العدوان على لبنان أن النموذج الحربي لأميركا والذي طُبق في يوغسلافيا وأفغانستان والعراق، هو نموذج يمكن أن يهزم، وهذا يشكل سابقة يمكن البناء عليها، ومثالاً يمكن أن يحتذى لكل الشعوب في العالم.

ثانياً: من جملة التداعيات التي تركتها هذه الحرب، ما يرتبط بالملف النووي الإيراني، حيث ذكر في أكثر من تحليل أن هذه الحرب كانت تهدف – فيما هدفت إليه – إلى توجيه رسالة قوية إلى إيران، بل كانت أيضاً محاولة للضغط عليها في موضوع ملفها النووي لترضخ لمطالب الإدارة الأميركية الساعية إلى حرمانها من حقها النووي.

لكن يبدو أن النتيجة كانت عكسية تماماً، إذ إن إيران ليس فقط لم ترضح للضغوط الأميركية، بل أبدت تمسكاً أكثر بحقها النووي وأظهرت حزماً كبيراً في تعاطيها مع هذا الملف.

كما يمكن القول إن كلا من أميركا وإسرائيل أرادتا من وراء هذه الحرب، ثني إيران عن دعمها لحركات المقاومة، خصوصاً المقاومة في لبنان، من خلال الإيحاء بإن هذه الحرب التي كلفت مجتمع المقاومة الشيء الكثير، إنما كانت نتيجة ذلك الدعم الذي قدمته الجمهورية الإسلامية للبنان

ومقاومته ، إذ أن هذه الحرب كانت من أهدافها نزع سلاح المقاومة الذي كان يسهم ذلك الدعم في توفيره لرد وردع العدوان الإسرائيلي على لبنان وشعبه.

ثالثا: من تداعيات الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان ما يرتبط بالواقع العراقي، حيث ستقدم هذه الحرب دليلاً إضافياً لكل من يساوره أدنى شك حتى الآن، في أن الإدارة الأميركية لا تعير اي وزن، لا لشعب ولا لفئة ولا لأي جماعة، في مقابل مصالحها ومصالح إسرائيل، وإن مصلحة هذه الأخيرة مقدمة على جميع الحقوق العربية والإسلامية، وأنها مستعدة لأن تحرق بلداً بأكمله، وتقتل أطفاله، وتبيد أهله، إذا كان في ذلك استجابة لمصالح إسرائيل، وبالتالي فإن استعادة الحقوق، وتحقيق المصالح الوطنية لأي شعب، لا يمكن أن يحصل من خلال الاعتماد على الإدارة الأميركية، والركون إليها، أو الظن بها خيراً، أو الانخداع بالمفاهيم الجوفاء التي يحاولون من خلالها ممارسة الكذب والخداع للشعوب العربية والإسلامية وشعوب العالم.

إن الشعب العراقي سوف يتأكد أكثر من أن أميركا لا تريد خيراً به وبالعراق، وأنها فعلت ما فعلت لا من أجل عيون العراقيين، بل من اجل النفط واستجابة لمطالب إسرائيل، ولذا إذا أراد العراقيون تحقيق المصالحة الوطنية، بطريقة تصل إلى أهدافها، وإذا أرادوا تحقيق مصالحهم الوطنية، ليس أمامهم إلا طريق واحد، هو طرد الاحتلال الأميركي، بل هزيمة هذا الاحتلال في العراق، وهذا لعبرة بسيطة أن الأميركي الذي كان مستعداً لتدمير لبنان وقتل شعبه، إذا ما تطلبت مصالحه ومصالح إسرائيل ذلك هو ايضاً مستعد لتدمير العراق وقتل أهله وزرع الفتنة فيه من أجل مصلحته ومصلحة إسرائيل، وهو لا يعنيه لا طائفة شيعية أو سنية؛ ومن هنا سوف يكون هذا الكلام منسجماًً مع ما نسب إلى الرئيس الأميركي بوش، من قلة عرفان شيعة العراق، لأن جيوشه لم تأت إلى العراق كرمى لعيون شيعة العراق، حتى تكون له يد عندهم، أو يكون صاحب الجميل في تحريرهم، وهو لن يستطيع بهذا الكلام المنافق أن يثني شيعة العراق، كما كل شعب العراق عن المساهمة في تحرير أرضه وطرد الاحتلال وهزيمته.

رابعاً: لقد أرادت هذه الحرب أضعاف سوريا، وإضعاف موقعها، وثنيها عن دعم المقاومة في لبنان، فكانت النتيجة عكس ذلك تماماً، إذ ان سوريا لم تتراجع عن مواقفها من قضايا الصراع العربي الإسرائيلي، ولم تتخل عن دعمها لحركات المقاومة في المنطقة، بل أبدت إصراراً أكثر على توفير مقومات الدعم لجميع حركات المقاومة وإن خروج المقاومة في لبنان منتصرة سوف يزيد الجميع قناعة بصوابية خيار المقاومة، وسيقدم دليلاً إضافياً على قدرة العرب والمسلمين على هزيمة إسرائيل وإذلال جيشها.

خامساً: من تداعيات هذه الحرب ما يرتبط بالموضوع الفلسطيني، باعتبار أن القرب الجغرافي من جهة، والتشابه الحاصل بالنسبة إلى مشكلة الاحتلال وقضية المقاومة من جهة أخرى، كل هذا وغيره، يجعل تفاعل الأحداث بين الساحتين اللبنانية والفلسطينية تفاعلاً كبيراً، لذا كان من الطبيعي أن تتأثر إحداهما بالأخرى، وتؤثر أحداهما بالاخرى، ومن هنا فإن الانتفاضات الفلسطينية كان تتأثر بشكل وبآخر بالانتصارات التي كانت تسجلها المقاومة في لبنان، كانتفاضة الأقصى العام 2000م، التي حصلت بعد انتصار المقاومة في لبنان، في العام نفسه عندما استطاعت المقاومة تحرير معظم الأراضي اللبنانية، وطرد الاحتلال من جنوب لبنان.

أما الانتصار الحالي فنقول ما يلي: إن هذا النموذج الأميركي – الإسرائيلي من الحرب، الذي يعتمد على قدرة تدميرية هائلة، وعلى اسلوب الحرب الخاطفة، هو نموذج يمكن أن يهزم، رغم أن هذا النموذج طبق في العديد من بلدان العالم، لذا فإن دروس الحرب الحالية، والخلاصات التي ستصل إليها حركات المقاومة، بل ايضاً الخبرات الجديدة المستخلصة من هذه الحرب؛ كل لك لا بد أن ينتقل إلى فلسطين المقاومة، ليشكل رصيداً جديداً في مشروع المقاومة، حيث لا بد أن يضيف هذا الرصيد قدرة إضافية، وقوة جديدة، إلى حركة المقاومة في فلسطين.

ومن هنا فقد توقع بعض المسؤولين الإسرائيليين أن تشهد فلسطين لبناناً ثانياً – اي معركة شبيهة بمعركة لبنان الأخيرة – بعد حوالي ثلاث سنوات – وهذا أمر بتقديرنا أنه من الطبيعي أن يحصل، ليتلقى الردع الإسرائيلي ضربة إضافية، بعد الهزيمة التي تلقاها في لبنان.

إن نتيجة هذه الحرب الأخيرة على لبنان هي هزيمة حقيقية لإسرائيل، وهي ستشكل أيضاً عاملاً أساسياً وإضافياً في هزيمة المشروع الأميركي في المنطقة، وسوف تُسهم هذه الحرب في زيادة التوتر وفي زيادة حدة الصراع في المنطقة، واعتقد أن هذا الأمر سوف يساعد أكثر فأكثر على تراجع النفوذ الأميركي في الشرق الأوسط، لأنه بمقدار ما تتورط أميركا أكثر في المنطقة بمقدار ما تتكشف نواياها الحقيقية، وتزداد خسائرها، وتزداد الضغوط عليها وعلى حلفائها في المنطقة.

لقد أرادت الإدارة الأميركية وإسرائيل من وراء هذه الحرب الوصول إلى نتائج غاية في الأهمية، تعيد رسم الشرق الأوسط من جديد، وفقاً لمصالح الإدارة الأميركية ومصالح إسرائيل، ولكن قد تثبت الأيام القادمة، أن كلا من أميركا وإسرائيل قد وقعتا في خطأ استراتيجي قاتل، قد لاتتبين معالمه في قليل من الأيام.